

٣ / استباحتة الأجنة :

سياسة الإجماض

- الإجماض الملحق
- رؤية جديدة للإجماض ومفهوم إباحته

obeykandi.com

أعيدت صياغة الأسس التي تحدد التعامل مع حالات الإجهاض ، بعد مراعاة
عديد من العوامل ، ولعل أهمها الإحساس بكينونة الجنين بعد تطور الموجات فوق
الصوتية على نطاق واسع لمتابعة الحمل والولادة ، وتطور العلاج الطبي للجنين أثناء
حملة ؛ فكان ولا بد من وضع إطار ثابت وتحديد الصورة الكاملة للتشريع الخاص
بهذه الممارسة .

ومن خلال قراءة قريبة لشريط عرض ، تحت اسم «حل بيل آلن» ومدته ٩
دقائق يعرض فيها قصتها ؛ فقد استطاعت أن تواصل حملها على الرغم من
الإجهاض غير الكامل الذي تعرضت له ، وعلى الرغم من المعاناة التي تحملتها ،
والإجهاد الذي شعرته فقد استطاعت استرداد جنينها ومنعه من الخروج . ومع هذه
التجربة يتضح مدى قوتها في رفض تلك اللحظة .. لحظة انفصالها عن وليدها ،
وهو غير قادر على مواجهة الحياة .. وفي هذا الشريط الذي عرض في فترة ما بعد
الثمانينيات ، استخدمت عبارات اصطلاحية لا يمكن أن يستمد معناها من مجرد
فهم كلماتها المنفصلة ، وساعد استخدام الأسلوب البلاغي مع جمال البيان ، في
جو موح من المؤثرات الصوتية المؤدية لبيان الهدف المقصود أن يكون لهذا العرض
انطباع شديد في نفس المشاهد عن مدى تأثير العلم وقوة التقدم الطبي .

ونعود بذاكرتنا إلى شريط « الصرخة الصامتة » ، فقد أوضح باستخدام الموجات
فوق الصوتية عملية الإجهاض ، وتناولها من وجهة نظر الجنين . وعلى الرغم من
كونه يوضح حدثاً طبيعياً معقداً ، إلا أنه يعد توضيحاً بيولوجياً لبعض الحقائق . فمن
أحداثه يعرض نوعاً من الإجهاض ، يسمى بإجهاض الفصل الثاني من الحمل
(الثلاثة شهور الوسطى) ، واستطاع أن يصور نمو الجنين حتى يصل لهذه المرحلة .
ولكن هذه الحقائق لم تعرض مجردة ؛ لأن ما صاحبها من قوة إيقاع الصوت وتأثير
الصورة مع العرض يختلف تماماً عما إذا عرض الشريط صامتاً . وتتساءل عن البعد
الاجتماعي والتاريخي والثقافي والفكري الذي يستمد منه هذا الشريط فحواه ، وعن
مدى تأثير الاختيار المسبق لهذا العمل ، أو الوقفة العقلية أو العاطفية المسبقة في
اتخاذ هذا القرار الصعب ، لإنهاء فترة الحمل .. وكيف يكون القرار صائباً وعقلانياً،
ويستند إلى ثقافة فكرية .

وفي هذا الفيلم نسافر في فتحة طويلة كالقناة ، بخطى متمهلة . ثم يسرع
الفيلم بالتأثير المسرحي لوجودنا داخله ، وقوة ما نواجهه ؛ فهذه المنطقة فتحت حديثاً
للرحلات الجماهيرية ، فهي رحلة للطبيعة أو لجسد حقيقي ، يبدو في قمة مجده
الوظيفي ، المجد الذي لا يمكن انتقاص قدره . وبدأت الرحلة دون أن نخبرنا أحد
بالمكان الذي توجد فيه أو المكان الذي ستذهب إليه ، أو بمن قام بمثل ذلك
العمل ، الذي تستخدم فيه تلك التقنيات العالية الدقة .

وكل حملة دعائية تحتاج لمن يقوم بتفسير هدفها ومضمونها وتحديد الموضوع المقدم فيها ، والتعليق عليه بصورة ، تخدم الغرض الذى قدمت من أجله . وقد عمل هذا الشريط على تكييف الظروف والحقائق المقدمة فيه ، وساعده على إظهار المادة المعروضة ، التعليق المشرق الذى بدأ قبل عرض الصور ليوحى بجو من التوقع والإثارة ، ويجد المشاهد نفسه محاطاً بسلسلة من الافتراضات التى تبدأ مع القصة . فيعطى بذلك تهيئة مناسبة لبداية العرض ، حيث يدخل المشاهد عالماً طبيعياً أو بيولوجياً . ويبدأ رحلته الاستكشافية التى تبدأ بعرض ثلاث لحظات بداخل القناة التناسلية : حويصلة بداخلها بويضة ناضجة تامة التكوين ، تحيطها خلايا مغذية وبعض فجوات مائية . ومن الخارج تبدو الأهداب فى قناة فالوب ، وهى تمس برقة الحويصلة المنتفخة قبل خروج البويضة منها . ومع تأكيد المبدأ الذى رسخ فى الأذهان ، ويعطى المرأة حق اتخاذ قرار الإجهاض ، ذلك الحق الذى اعتبرته المرأة انتصاراً لمعركتها التحررية . ثم بدأت الصورة تقترب ، وتوضح أكثر أن هذا العمل يتم بإرادة المرأة واختيارها ، ويبدأ الشريط بصوت يقول «أنا أختار .. أنا سأختار» «جسدى .. اختياري» ، وكل تعبير من هذه التعبيرات يخرج من وجه امرأة مضغوط خلف زجاج مبتل ومشوه .

والجزء الثانى من الشريط يوضح ما سبق اختصاره أو إجماله بالصعود لمرحلة إجهاض الجنين ، بعد أن أتم داخل رحم أمه الثلاثة شهور الوسطى ، وأصبح عمره ستة أشهر . ذلك الإجهاض الذى أطلق عليه «الإجهاض الملحى» فى هذا الشريط ، ويبدأ العرض بسقوط صخرة ملحية موجودة من يد موجودة أعلى الشاشة ، ثم يعكس اتجاهها مرة ثانية ليبر عن الاختيار المتاح ، والذى أعيد تشكيله فى هذه الفترة . وقد لقي هذا العرض قبولاً جماهيرياً ؛ فقد ساهم التصوير بما يصاحبه من مؤثرات فنية ، وبما ارتبط بكل صورة من معلومات صيغت فى شكل تعليق أسفل كل لقطة ؛ فقد ارتبط المشاهد وتفاعل مع عرض التفاصيل التكنولوجية المستخدمة ، والتى أوضحت المعاناة الجسدية التى تصاحب عملية الإجهاض ، وتابعها بصورة مؤثرة لحظة بلحظة حتى وصل إلى اللحظة الحاسمة .. تلك التى أسماها لحظة الكشف عن الحقيقة .. وهى اللحظة التى تعبر عن إجهاض الجنين تماماً .

وأوضحت بداية الفيلم أن إجراء عملية الإجهاض يستلزم فى أول مراحلها محلولاً ملحياً يتكون من ٢٠٠ حجم من الملح مذاباً فى الماء . ويبدأ حقنه فى السيدة فيسبب تقلصات عنيفة فى الرحم ، خلال دقائق معدودة . وتلا ذلك نص آخر : «كلوريد الصوديوم مع حافظ ملحى ومدمر ملحى» ، وبين اللحظتين ظهرت صورة داخلية للجسم ؛ ليتخيل المشاهد ما تعنيه تلك اللحظة .. فهى مقرونة بمنظر

لم يصور على الشاشة .. منظر الضحية . ويتبع ذلك ظهور كتلة من سائل أزرق ، تتوالى بعدها ظهور سوائل الجسم كمادة سميكة بيضاء ، تبدو من خلال نسيج مسامي ، ثم عضلة منقبضة . وفي النهاية يظهر فيض من المادة نفسها التي بدأ بها الشريط (السائل الملحي) ، يمر خلال فتحة ، توصل إلى نفق ضيق ، ثم مرة أخيرة يظهر السائل الأزرق .

وعلى الرغم من أن هذا الفيلم يعرض صوراً هادئة وليست عنيفة ، ولا تمثل أذى للمشاهدين ، إلا أن تنظيمها وسرعة ايقاعها تعزز الإنطباع بحدوث شيء غريب وغير مألوف ، بالإضافة إلى ذلك أمدت النصوص المكتوبة المشاهد بتأثير عميق للمشاهد التي تعرض ، وخاصة مع التقلصات العنيفة للعضلات والملح يدمرها ، وكذلك صورة السيدة التي أجهضت ، وهي نفسها التي ظهرت في أول الشريط خلف الزجاج المبتل . يراها المشاهد وهي مستلقية على ظهرها ، وعلو قسماتها إعياء شديد ، وتدور بعينيها تلفهما ، ثم تطويهما معبرة عن الألم الشديد الذي تقاسيه ، وكأنها تعيش كابوساً مخيفاً ، ثم تقع صخرة الملح على وجهها كقطعة من الثلج ، بينما يعلو أنين وتأوه إنسان مفجوع ، يعلو ليغطي على الموسيقى الهادئة ، وتغلق الكاميرا فتحتها لتركز على المشاهد ، وتبدو وكأنها لحظة تأمل وترو مدرّوس ، ثم ينتهي العرض بظهور الشاشة بيضاء تماماً .

ويحس الرائي بالقرب والألفة الحميمة مع تلك التجربة ، حتى يشعر وكأنه يفرق بداخلها وتحتويه ، وفجأة ! يتنبه لضحكة طفل . ثم تظهر صورة جنين عمره ١٨ أسبوعاً يطفو ، كاملاً صحيحاً ، وكأنه يحيا بداخل الرحم ، ويبدو على وجهه الهدوء والراحة ، ويقابل تلك الصورة منظر تمزيق أوصال جسد الجنين أثناء الإجهاض ، مما يدعو المشاهد للتعجب والتأمل ، ثم التساؤل : هل هذا الجنين هو نفسه الذي بدأ موته مع تعليق المحلول الملحي لأمه ؟ ثم يسمع صوتاً يقول : « صه ياطفلى .. صه ياطفلى » .

ومرة ثانية تأتي ضحكة الجنين مع صورته ، عندما يكمل ١٨ أسبوعاً ، ويرفع يده ، وكأنه يحمي نفسه من النظرة الثاقبة التي تخترق عالمه الخاص ، وتظهر صورة امرأة خلف الزجاج تمتص الماء كما يفعل الجنين داخل الرحم ، وملامحها مبتلة ومشوشة .. ثم يبدأ المزاح بما يمكن أن يدور بين الأم وطفلها - ومع المؤثرات الفنية - يسمع صوتها تقول : «أنا أسمعك» ، ثم صوت امرأة تقول في سخرية : «أنا أراك.. الوداع يا صغيرى !» .

وعلى الشاشة تظهر صورة جنين عمره ٧ أسابيع ، وصورته مكبرة ١٥ مرة لتملاً الشاشة ، ويداه تلوحان ، ثم يكمل الرواية : «طفل من خيالي !» .. ولن

تكون طفلاً أبداً!! .. «ولحمًا من لحمي!» .. «ولن تكون لحمًا أبداً!!» ثم يظهر جنين عمره ١٨ أسبوعاً ، ويعدده صورة المرأة خلف الزجاج .. ويعرض بعد ذلك لحظة بداية الحمل ، منذ التفاف الحيوانات المنوية حول البويضة ، موضحاً الإبداع فى الخلق وما يحتويه من انقسامات متتالية لهذه الخلية الصغيرة بتتابع منظوم؛ لتؤلف هذا المخلوق الرقيق الصغير . ثم يأتى بعد ذلك الإلتلاف المتعمد والتدمير القاسى بعزم الإنسان وإرادته ، ويؤكد ذلك الصوت المنبعث داخل الشريط قائلاً : «يقطع الأوصال ، يحطم ، يبدد» .. وهكذا يعلن الصوت عن السقوط مجازياً وحرفياً.

ويخرج المشاهد من الطريق نفسه الذى دخل منه هذا المكان الحيوى مجبراً ، أو يطرد كما طرد منه ساكنه الأصلي الذى كان يقطنه . ومع تنفس عسير يلزم هذا الخروج ، ينادى صوت : «هذه أوقات خطيرة!» . ويتعجب المتابع لهذا الفيلم : لمن تكمن الخطورة ؟ ولكن لا أحد يجيب . ويخرج الجنين الصغير محمولاً على أيدي مكسوة بالقفازات الجراحية .. تساعد ذلك الصغير الذى ينسحب من الحياة ، ويختفى نهائياً . ثم يأتى مشهد السيدة الراقدة على ظهرها ، وهى تتلوى من شدة الألم ، وفى النهاية تطفو صخرة ملحية إلى أعلى الماء ؛ حتى تصل إلى اليد الموجودة فى أعلى الشاشة .. وفى تهكم يقول الصوت ويكرر : «جسدى .. اختياري .. طفولتى» .

رؤية جديدة للإجهاض ومفهوم إباحته

هذا العرض نقل المشاهدين إلى عالم خيالى بعض الشيء ، أو هو عالم الرغبة والمعرفة والمعاني المختلطة التى يصعب تمييزها ، ولكن مع توالى المقالات الطبية والعلمية التى تناقش وتوضح التطورات المعاصرة فى هذا المجال ، والتى كان هدفها توضيح عملية الإجهاض وإمالة اللثام عن أسرار الحمل والإنجاب من خلال الحقائق الأساسية والحيوية عن حياة الجنين . وبدأ الكشف عن حياته المستقلة وهويته كشخص حى حساس ورقيق وبرئ ، فبدأ وكأنه طراز مصغر من إنسان بالغ ، ولكن بقى أثر شريط الفيديو والصورة الخيالية التى قدمها للجنين ؛ ليقص رواية الرفض والندم على اختيار القيام بعملية الإجهاض ؛ فقد أوضح أن تلك العملية تكون فى أبسط صورها تشويهاً ، وفى حقيقتها نوعاً من القتل .

ولقد أحدث عرض هذا الفيلم دويماً وتأثيراً قوياً ، ولكن قبول مضمونه اختلف باختلاف المرحلة العمرية للمشاهدين ؛ فقد أبدى كبار السن اعتراضاً على كونه اختياراً مسبقاً ، وأشاروا إلى رفضهم لتنافر الأصوات التى صاحبت عرض الشريط . وعلى الرغم من أن أحداثه تركز على ضياع الجنين ، إلا أن مفهوم الضياع فى تلك العملية يكون لهذه الممارسة فى حد ذاتها . أما الشباب الأحدث سناً فقد كانت

المعلومات المصاحبة لعملية الإجهاض باللغة الصعوبة بالنسبة لهم ، ولكنهم عبروا عن انزعاجهم الشديد بعد رؤية هذا العرض ؛ فقد لمسوا خطورة هذه العملية ومدى عنفها . واتضح لهم أنها إفساد للعملية البيولوجية الطبيعية والنفسية ؛ وخاصة بالنسبة للمرأة التي تعاني مما يعقبها من اضطراب وندم مع شعور بالذنب واليأس .. ومن العجيب أن رأى البعض فى هذا الإحساس نوعاً من العقاب للمرأة ، التي تقدم على الإجهاض ، وثنماً لا بد أن تدفعه ، وأن الإحساس بالندم هو بقايا من العطف ، بقى فى نفس هذه السيدة فى غياب من كان له حق فى أمومتها ، ولا بد للأم أن تعاني قسوة القرار الذى اتخذته .. كشعور إنسانى طبيعى .

ولأن المناقشة تدور أساساً حول الإجهاض كمفهوم - فى حد ذاته - وأن المرأة قد تتخذ هذا القرار لأسباب حتمية ومنطقية تناسبها . والشباب عادة يختلفون مع كبار السن ، الذين عادة ما يعارضون هذا الاتجاه ؛ فقد ساهم ذلك الفيلم فى إعادة النظر والاعتبار لوجهتى نظريهما ، بما احتواه من مؤثرات بصرية وسمعية ، وجعل الجدل الدائر يأخذ صورة علمية ومنطقية ، وقد ساهمت الحقائق المعروضة على الشباب أن يأخذ فى اعتباره ما توصل إليه علم الأجنة من أن ذلك الكائن الصغير لا يستطيع أن يحيا وحيداً ، وأن له احتياجات خاصة تساعد على النمو ، ولهذا لا بد من تشريع ممارسة هذه العمليات واستنادها إلى الضرورة للقيام بها .

وعلى الرغم من أن مفهوم الإجهاض لا يرتبط بالمعنى الحقيقى للأمومة فى معظم الأحيان ، إلا أن المرأة جاهدت فى أمريكا للحصول على حرية ممارستها ، ذلك الحق الذى اعتبرته نصراً لها ومكسباً بالغ الأهمية ، ولكن بعد الحملات الدعائية القوية التى هدفت إلى تحجيم القيام به ووقفت ضد ممارستها بشدة ، جعلت النظرة لذلك الأمر تبدو أكثر عقلانية تجاه الأم والجنين ، وخاصة بعد سن التشريع الذى يقنن القيام به تحت إطار الضرورة الطبية فقط . وخاصة بعد أن أعلنت الإحصائيات الرسمية أن نسبة الوفيات فى السيدات المجهضات كانت أكبر من نسبة الجنود ، الذين ماتوا فى حرب فيتنام . ومع التوعية المستمرة أصبح تصور خروج الجنين فى مرحلة لا تسمح له بالاعتماد على نفسه ومواجهة البيئة الخارجية .. يبدو قتلاً ، مما كان له أكبر الأثر فى إعادة النظر فى مفهوم الإجهاض .